الفصل الخامس

فكِّر في الخدمات الصغيرة

«إن بإمكانك أن تنفق نصفَ وقتك وحيداً، إلا أن عليك أيضاً أن تكون خدوماً ومفيداً، وإلا كنتَ خارجاً عن السرب».

آن لاموت[1]

ما إن انتهينا من تناول الغداء حتى سمعنا صوت بوق سيارةٍ في الخارج. لعلّي قد أخطأتُ في قراءة حركات جسد بِيتْ أونيل Pete O'Neal هذه المرَّة؛ لكنك هل تملك عندما تكون هارباً من وجه العدالة إلا أن تكون قَلِقاً؟

وانطلاق بوق السيارة في المنطقة التي أقيمُ فيها ليس في العادة مدعاةً للقلق على الإطلاق؛ إنه يعني أن أحدهم قد أخطأ في استعمال المنبِّه في سيارته. ومع ذلك فعندما تعيش في أدغال إفريقية، بعيداً عن المسالك المطروقة، ومحاطاً بأكواخ الطين والعشب، وأنت الشخص الوحيد الذي يملك عربةً بينهم، فإن صوتَ بوق السيارة يلفت انتباهك.

لا بدَّ أن أحداً قد قَصَدَ منْزلَ بِيتْ في الظلام، محتملاً مشقةَ قطع أميالٍ على مسالك وعرةٍ قد حفرت فيها الأمطارُ أخاديد تصطكُّ منها عظامُ السائر عليها. نَظَرَ بيت إلى زوجته شارلوت Charlotte، وقد

ارتسمت على وجهه خطوطٌ تنبئ بالوَجْس. هزَّت كتفيها، وكان تحاورهما الصامتُ ذاك زاخراً بالمعاني. مَنْ عسى القادم أن يكون؟ ولماذا؟ ومَنْ الذي يعرف أننا هنا؟ كيف اهتدوا إلينا وماذا يريدون منّا؟

بدا بيت شبيهاً بالقائد العجوز في فيلم The Lion King، بجدائل شعره المضفورة خلف رأسه، وبظهره المتيبِّس الذي يضطرُّه إلى أن يبقى معتدلاً لا يطيق انحناءً عند النهوض. تناول عكّازَه وانطلق نحو الصوت.

بقينا نحن على المائدة صامتين نصغي إلى الهدير العميق لمحرِّك سيارة الفولكس فاكن، المختلط بنباح عددٍ لا يُحصى من الكلاب المستثارة. وكنّا نتحدث عن أحوال بيت باعتباره مؤسِّس حزب النمر الأسود في مدينة كانزاس، وذكرنا مشاجراتِه المتكررةَ مع الشرطة ومحاولتَه إفساد جلسات الاستماع القضائية في واشنطن دي سي.

أخبرَنا بيتْ عن محاكمته عندما أُدينَ بجُرم نقل سلاحٍ عبر الحدود، وعمّا تلقّاه من تهديداتٍ بالقتل في الولايات المتحدة، وكيف تمكَّن من الفرار بمساعدة الحزب الشيوعي الأمريكي قبل إرساله إلى السجن. وأخبرَنا كذلك أنه سيُعتَقَل على الفور إذا هو حاول العودة إلى الولايات المتحدة.

كانت هذه زيارتي الثانية لإفريقية مع بيتْ وشارلوت. وقد يبدو مستغرَباً أولَ وهلةٍ أن أنشد مساعدةَ رجلٍ هاربٍ من العدالة في شأن جسرٍ طبّي. ولا ننسى أن رجال حزب النمر الأسود كانوا مرهوبين في أمريكا على وجه العموم عندما كنتُ فتىً يافعاً في ستينيات

وسبعينيات القرن الماضي، وطالما حاولوا اللجوء إلى العنف لإسقاط الحكومة الأمريكية. وقد وَصَفَ ج. إدغار هوفر مديرُ مكتب المباحث الاتحادي آنئذٍ ذلك الحزبَ بأنه الجهةُ الوحيدة التي تمثِّل خطراً عظيماً على أمن الولايات المتحدة.

تذكَّرْ سؤال تولستوي في فصلٍ سابقٍ من الكتاب: «علام نحيا؟» إن بيتْ وشارلوت مثالان ناطقان للتحوُّل الذي يطرأ على حياة الناس عندما يتمثَّلون الجواب عن سؤال تولستوي. الجواب هو: على خدمة الآخرين.

يلاحظ الناظرُ إلى الفسحة المخصَّصة لتناول الطعام في مقرِّ بيت وشارلوت أنها حديثةٌ وعصرية إلى أبعد الحدود، ولا سيما مع مجمل ما يحيط بها؛ فهي أشبه بباحةٍ مرصوفةٍ خارج مطعمٍ أنيق، تغمرها الأنوارُ الساطعة، ومجهَّزةٍ بطبقٍ للسواتل وتلفاز وجهازٍ للتسجيل المرئي ومقاعد وثيرة ولوحة للعبة السهام المُرِيْشة ومنضدةٍ للشطرنج. وعلى الجدار صُوَرٌ للمضيفَيْن كما يعيشان في تانزانيا: صورة لـ بيتْ وهو يتسلَّق جبل كليمانجارو، ولشارلوت وهي تفتتح مركزاً محلّياً للفنون، وصورة لهما معاً وهما يتسلَّمان جائزةً من مجلس الفنون الوطني. وهناك أيضاً صورٌ فوتوغرافية لماضيهما الأكثر بُعداً في الولايات المتحدة: بيت وشارلوت يعتمران قلنسوتين سوداوين ويضعان نظارتين شمسيَّتين، ويحملان أسلحةً فرديةً، وأمارات التجهُّم باديةٌ على وجهيهما. وعلى الرف توجد كأس للفوز ببطولةٍ للملاكمة.

وفي حين انصرفَ بيتٌ لاختبار بوق السيارة، تابعت شارلوت حديثها، مع أنها لم تصرف بصرها عن الباب الذي غادر منه زوجُها الغرفة.

فجأةً سمعنا السيارةَ تبتعد، وبيتٌ يَظهر من قلب الظلام مبتسماً. كان ذاك هو المراسل القادم من مطار كليمانجارو الذي يبعد مسير ساعةٍ أو يزيد. ظهر بيت يحمل مغلَّفاً كبيراً أصفر اللون يحتوي على شريط فيديو بعنوان «أمريكي في المنفى» American in Exile، وهو فيلمٌ وثائقي عن حياته الشخصية، أعدتَّه ثلةٌ من المتخصِّصين من جامعة كاليفورنيا في بيركلي، وكانت هذه هي النسخة الأولى التي لم يشاهدها أحدٌ بعدُ خارج غرفة التحرير في بيركلي.

قال بيتٌ موجِّهاً الخطاب إليَّ: «هل تحبُّ أن تكون أول مَنْ يشاهد الفيلم؟»

قلتُ: «لعلكما أنت وشارلوت ترغبان في مشاهدته أولاً في خلوة».

قال: «أنت فردٌ من الأسرة؛ سنشاهده معاً». وبالفعل فقد شعرتُ منذ اليوم الأول للقائي بيتٌ وشارلوت أنني واحدٌ من أفراد الأسرة.

لم يسبق لي أن حضرتُ العرضَ الأول لفيلمٍ من أفلام هوليوود، إلا أنني، في تلك الليلة وفي الأجمة الإفريقيّة، شاهدتُ العرضَ الأول من فيلمٍ تانزاني، ولن أنسى ذلك الحدث ما حييتُ.

يُستهل الفيلمُ بمشاهد من بيئة بيتٌ في كانزاس سيتي، حيث قضى سنيَّ فتوَّته داخل السجن وخارجه. ثم يعرض صورة لمقرّ قيادة حزب النمر الأسود، ومشاهد مواجهة بين أعضاء الحزب والشرطة، وأخرى

يظهر فيها أعضاءُ الحزب وهم يطعمون الأطفالَ الفقراء في مدارسهم صباحاً باكراً. ويشتمل الفيلم أيضاً على مقابلاتٍ مع والدة بيت وإخوته، الذين مازالوا يعيشون في مدينة كانزاس، وكذلك مع مراسلي الصحف الذين تعهَّدوا أخبار أعضاء حزب النمر الأسود.

وبينما كنّا مجتمعين نشاهد الفيلم، كان بيتْ وشارلوت مستغرقَيْن في عالَمٍ آخر، مبحرَيْن ثلاثين سنةً في الماضي. تساءلا متعجِّبَيْن: "كيف استطاعوا أن يحصلوا على هذه الصور؟ وكيف اكتشفوا ذلك؟"

على أنهما ذَهلا حقاً عندما عاينا الواقعة التي أفسد فيها بيتْ جلسات استماع مجلس الشيوخ الأمريكي للمدير العتيد لمكتب المباحث الاتحادي كلارنس كيلي. فقد كان أونيل وكيلي خصمَيْن قديمَيْن أيام كان كيلي قائداً لشرطة كانزاس، وكان لـ بيت تاريخٌ طويلٌ من المشاحنات معه.

فلما أصبح كيلي قابَ قوسين من أن يُنتَخَب لواحدٍ من أرفع المناصب التنفيذية في الدولة، انبرى بيتْ منادياً بسقوطه وواصفاً إياه بأنه مصدر خطرٍ على المجتمع. ويُظهر الفيلمُ بيتْ بقلنسوته السوداء ونظاراته الشمسية الدكناء، ورجال الأمن يُخرجونه من القاعة قسراً. كان بيتْ وشارلوت يجلسان معاً على أريكةٍ واحدة، ورأيتُهما يهزَّان رأسيهما ويبتسمان لهذا المشهد.

كانا مؤمنَيْن بالنضال حينئذٍ، وهما مؤمنان به اليوم كذلك، إلا أن النضال الجديد اتَّخذَ أبعاداً أخرى مختلفة؛ ففي حين أنه كان في السابق يقوم على العنف، صار اليومَ ينطوي على الخدمة المحضة.

أسَّس بيتْ فرعَ مدينة كانزاس لحزب النمر الأسود سنة 1969، وكان قد أمضى السنوات السابقة كمجرم غير خَطِر، وهو يقرّ الآن بأنه ربما كان مقبلاً على تنفيذ حكم قضائيٍّ يقضي بسجنه مدةً طويلة. وعندما سمع بسيرة شخصياتٍ من أمثال إلدريدج كليفر وهيوي نيوتن وغيرهما من مؤسسي حزب النمر الأسود تردَّد في نفسه أمرٌ ما. فقد ثارت أقاويل عن ثورةٍ مسلَّحةٍ في أمريكا ـ عمليات عنف تهدف إلى إطاحة الحكومة الأمريكية. وتنادت مجتمعاتُ المواطنين السود إلى الدفاع عن مستقبلها، وسادت لدى السود في أمريكا رغبةٌ لإسقاط مضطهِديهم وتأليف بنيةٍ لسلطةٍ جديدة. وتمكَّنت الحركةُ من فرض القانون في طول البلاد وعرضها، بحيث بات معظمُ أمريكا البيضاء يوجس من النمور خيفةً يشوبها الإكبار في آنٍ معاً.

وقد صرَّح بيتْ أونيل أن عضويته في حزب النمر الأسود قد حَتَمَت عليه مساعدةَ مجتمعه في كانزاس سيتي لاستنباط أسلوبٍ مختلف في التعامل مع حياة السود في أمريكا. وقد مارسَ الفرعُ المحليُّ للحزب ضغوطاً على قسم الشرطة، وذلك باقتفاء سياراتِ الشرطة لتسجيل أي تجاوزاتٍ أو انتهاكات. وقد كان أعضاءُ فرع الحزب يشهدون اللقاءات السياسية العامة والخاصة، مطالبين بتلبية حاجات مجتمعهم؛ وكثيراً ما أدّى ذلك إلى مواجهاتٍ مع مسؤولي الدولة والشرطة والشركات والكنائس تتَّسم بالعنف أحياناً. وقد أدَّت سياستهم وتهديداتهم في الواقع إلى تألُّب الأعداء عليهم، بل لقد تحوَّلت النِّزاعاتُ بينهم وبين الشرطة إلى خلافاتٍ شخصية إلى حدٍّ بعيدٍ حَمَلَت بيتْ مرَّةً على تحدّي كلارنس كيلي إلى نزالٍ فردي.

وأعلن بيتٌ أن «المجموعات الثورية كافةً في ذلك الحين ـ أمثال أعضاء حزب النمر الأسود والعاملين في مصلحة الأرصاد الجويّة والطلبة المؤيِّدين للمجتمع الديمقراطي وغيرهم ـ كانت مؤمنةً بأن نظامَ الحكم الأمريكي نظامٌ فاسد لا بدَّ من إسقاطه وإعادة بنائه. إننا ننظر إلى مؤسسة الشرطة على أنها جيشٌ محتلٌّ يهدِّد وجودنا، ومن ثم فيجب القضاء عليه كذلك».

من الناحية الأخرى، وفي أثناء كلِّ تلك المواجهات الغاضبة، لم ينقطع أعضاءُ الحزب قطُّ عن ممارسة نشاطٍ آخر تمثَّل في تقديم الفطور للأطفال وتوزيع الملابس على المحتاجين.

قال بيتٌ: «الجميع يحبّون التحدث عن الأسلحة والعنف، غير أن ما جَذَبني إلى حزب النمر الأسود هو ذاته ما يثير اهتمامي هنا في تانزانيا ـ خدمة المجتمع. إن من أعظم دواعي مسرَّتي وسعادتي في الحياة، بصفتي عضواً في الحزب، توفير الطعام للأطفال الجياع كلَّ صباح، لا يهمُّنا من أين نحصل عليه؛ فقد ظلَّت المافيا حيناً تمدُّ برنامجَنا بالطعام. وأنا على ثقةٍ من أن أولئك الأطفال هم الوحيدون الذين كانوا يتناولون شرائح اللحم على الفطور!».

ومن فعاليات الحزب أيضاً ـ إضافةً إلى إطعام الأطفال الجياع ـ أنه افتتح مستوصفاً صحيّاً مجانياً تبرَّع بالخدمة فيه طبيبٌ وممرِّضةٌ وصيدلاني.

ومع استمرار الحزب في إلهاب الوضع المتفجِّر أصلاً بين السود والشرطة، استمرت خدمة المجتمع على التوازي. ثم جاء الوقتُ الذي تعلَّم فيه بيت درساً في فلسفة الحزب. يقول بيت: «حدَّثتني قيادةُ الحزب يوماً على انفراد، وطلبت مني أن أخفِّف من حِدَّة لهجتي في المناقشة والمطالبة مع الشرطة، لأن أسلوبي الحالي قد يحول دون الارتقاء بالمجتمع. كانت تلك فكرةً جديدةً راقتني واستسغتُها: وهي أن مصالح المجتمع مقدَّمةٌ على مصالح الفرد. وقد حفزني هذا على أن أكون أكثر انغماساً في الخدمة التي كان لها تأثيرٌ في شؤوني المادية وأحقادي الشخصية، فبدأتُ أنظر إلى الصورة الكبيرة الشاملة».

على أن خلافات أونيل بلغت ذروتها عندما قُبِضَ عليه وهو ينقل قطعة سلاح عبر حدود الولاية، فأدين سنة 1970 وحُكِمَ عليه بالسجن مدة أربع سنوات. يقول بيت: «بعد إدانتي أخبرني ضابطُ الشرطة أن مقامي في السجن لن يطول، وأنني سأخرج منه في صندوق. قال لي ذلك ساخراً وهو يبتسم، فأيقنتُ عندها أن القاضي قد حكمَ عليَّ بالموت».

هكذا خرج بيتْ وشارلوت فارَّين من بلادهما ، وأقاما مع أعضاء آخرين من الحزب في المنفى؛ في السويد أولاً ثم في الجزائر، وكانا يأملان في العودة إلى الولايات المتحدة في غضون سنة. ثم استقرّا في تانزانيا ـ الدولة الاشتراكية آنذاك ـ انتظاراً لقرارٍ بإعادة محاكمته، وأقاما فيها منذ سنة 1974.

ومنذ أيامهما الأولى في تانزانيا راحا يطبِّقان فلسفةَ تحسين المجتمع حيثما حلاّ؛ فاستُبدل بحديثهما عن إطاحة الحكومة الأمريكية رغبةٌ في رفع مستوى الأفراد الذين يعيشون معهما، فزاولا الزراعة دون سابق خبرةٍ فيها، واتصلا بجيرانهما وأقاما علاقاتٍ معهم، وعملَ بيتٌ في صنع (النقانق)، وأنشأ وزوجته مركزاً اجتماعياً كما فعلا في كانزاس.

تقول شارلوت: «لقد شُغِفنا بخدمة المجتمع منذ أن كنّا في مدينة كانزاس، ومازلنا كذلك. إنك ما إن تلمس مدى السعادة التي تحقِّقها عندما تعيش على خدمة الآخرين حتى تجد نفسك عاجزاً عن التوقف».

في هذا المساق قام الزوجان بحملاتٍ لتوفير الكتب للمدارس المحليّة؛ واستفادت شارلوت من موهبتها الفنيّة في إعطاء دروسٍ في الفن لنساء القرى المجاورة، وكانت تقول: «لقد فتحت هذه الدروس آفاقاً لعالَمٍ جديدٍ أمام هؤلاء النسوة؛ فبعد أن كنَّ ساذجاتٍ عند دخولهن بيتنا أولَ مرة، غدونَ اليوم واثقاتٍ مدركاتٍ لإمكاناتهن، وصارت أعمالهنَّ الفنيّة معروضةً في المدن المجاورة».

وعندما رأى الزوجان ما يُحدثه مرضُ الإيدز من ضررٍ فادحٍ في القارة السوداء، أطلقا حملة توعيةٍ وإرشاد عن طريق عرض شرائط فيديو عن فيروس HIV المسبِّب للمرض لمن شاء أن يشاهدها من العامة. ولما كان الحديثُ عَلَناً عن مريض الإيدز لم يكن أمراً مقبولاً في العُرف آنذاك، فقد كان من الضروري نشر رسالةٍ في طرائق الوقاية منه.

وقاما بتوزيع نشراتٍ إعلانية عن شرائط الفيديو تلك، فاستجابت لها أعدادٌ كبيرةٌ من الناس بحيث ضاق بهم منزلهما، فكان الحلُّ في وصل جهازٍ تلفزيوني صغير إلى جهاز تسجيل مرئي وُضِع على سيارتهما، ثم وصْله ببطارية السيارة، فأتيحت بذلك فرصةُ مشاهدة الأفلام من عامة الناس الذين تجمهروا بالعشرات حول السيارة لهذا الغرض. ثم توسَّعت الدائرة، فقام بيتٌ بنقل الشرائط إلى المؤسسات الصناعية في مدينة أروشا المجاورة. وكان يعرضها من سيارته على العاملين في أوقات استراحتهم.

كذلك نظَّمَ الزوجان احتفالاتٍ من شأنها أن تعزِّز فنونَ الرقص والموسيقا التقليدية في التراث القَبَلي المحلّي. وأدرك الكبارُ من علية المجتمع قيمةَ تلك الجهود، فمنحوا الزوجين أرضاً مساحتها أربعة فدادين لمتابعة نشاطهما فيها وتطويره. وعلَّقت شارلوت على ذلك قائلةً: «لقد كان قراراً صائباً جداً؛ فنحن لسنا تانزانيَّيْن ولا ننتمي إلى قبيلة واميري التي تحكم المنطقة، إلا أنهم عرفوا قيمةَ المنافع المتحصَّلة من هذه الأنشطة على المجتمع فأرادوا منّا أن نواصل نشاطنا في هذه السبيل».

ما لبث المجمَّع أن اتَّسعت رقعتُه ليصبح مركزاً مؤلَّفاً من مبانٍ لاستقبال الضيوف والفنانين المقيمين والطلاب الوافدين على سبيل المبادلة، وتقام فيه دوراتٌ في علم الحاسوب وتصميم الأزياء والرسم والموسيقا والرقص، علماً بأن المندوب الثقافي التانزاني من أكبر أنصار ما يسمى اليوم «المركز الاجتماعي الإفريقي الأمريكي».

ومما يقدِّمه المركز برنامجٌ بعنوان «أَصْلِحِ المجتمعَ» يتيح فرصاً للمراهقين والمراهقات من سكان كانزاس سيتي ممَّن لديهم نزعات عدوانية لقضاء بعض الوقت مع بيتْ وشارلوت أونيل وغيرهما في تانزانيا. ويرى بيتْ في هذا البرنامج «فرصةً للمراهقين للاطلاع على تراثهم، وربطهم بعالَمٍ أوسع من محيط بيئتهم، لأن كثيرين منهم يجهلون تاريخَ بلادهم. ويغادروننا وقد تزوَّدوا بقسطٍ وافرٍ من الاحترام لأنفسهم أولاً وبالذات». ومنهم من يختتم زيارته إلى تانزانيا برحلة تسلُّقٍ لجبال كليمانجارو. «وعندما يهبطون منها يكونون على أهبة الاستعداد للانخراط في العالم»، كما يقول بيت.

وإنني شخصياً كلما لاحظتُ كيف وقفَ بيت وشارلوت حياتَهما للآخرين، وكيف تحوَّلا من طريق العنف إلى طريق الخدمة، تذكَّرت قصة السامريّ الصالح الذي أخبرَ عنه السيدُ المسيح ردّاً على السؤال: «مَنْ هو جاري الحق؟».

تحكي القصةُ معاناةَ مسافرٍ يهاجمه قطّاع الطُّرق ويوسعونه ضرباً، ثم يتركونه ليموت. يعبر زعيمٌ سياسيٌّ إلى الطرف الآخر من الطريق ليتجنَّب الاقتراب من الرجل المحتضَر، ويمر به رجلُ دين ويتحاشى الاقتراب منه كذلك. أما السامري فيتوقَّف لدى رؤيته الضحيّة، مع أن السامريِّين لم يكونوا أصحاب مكانةٍ وحظوةٍ عند الناس. يبادر السامريُّ إلى حمل الرجل المنهوك على جواده وينقله إلى حيث يلقى العناية الطبيَّة اللازمة، ومسدِّداً نفقات علاجه مقدَّماً. ثم يطرح السيد المسيح هذا السؤال: «مَن الذي تصرَّف تصرُّف الجار؟»[2].

ما يعجبني في هذه القصة هو أن المساعدة قد تأتي ممَّن لا ترجى منهم المساعدة. وكان السامريون رافضين لذلك المجتمع متمرِّدين عليه، ويُنظَر إليهم على أنهم يمثِّلون قمةَ الفساد والعداوة، حتى لكأنهم نظائر حزب النمر الأسود في عهدهم. ويكمن موطنُ القوة من القصة في مبادرة «عدوٍّ» لإغاثة ملهوف. وهي توحي بأن «جارنا» هو صاحب الحاجة أيّاً كان، وبأن خدمة الآخرين ممكنةٌ حتى في أبعد الأحوال احتمالاً.

يقول توماس كيتنغ إن الخدمة النابعة من قلبٍ محبّ «لا تعرف حدوداً سياسيةً ولا دينية... وقد تلاشت الحدودُ فعلاً في قصة السامريِّ الصالح». «وهو يرى أن مغزى الحكاية يتلخَّص في أن كلَّ فردٍ معنيٌّ بشأن أخيه».[3]

هذا ولم أكن قد سمعتُ بـ بيتْ إلا عندما كنتُ أحاول التماسَ الدعم والمساعدة لجسرٍ جوّيٍّ طبّي كان من المزمع مدُّه إلى مدينة أروشا التانزانية، التي هي صنوانٌ لمدينتي كانزاس سيتي. ومن المعروف أن تانزانيا من أفقر البلدان الواقعة في أفقر قارّةٍ في العالم، فأرادت مؤسسة «من القلب إلى القلب» نقل مَدَدٍ طبّيٍ مَسَّتْ حاجةُ المستشفيات والمستوصفات هناك إليه. وبعد اجتماعٍ عُقد في وسط مدينة كانزاس مع عددٍ من كبار التجّار والزعماء السياسيين، طلبَ العُمدةُ أن يتحدَّث إليَّ على انفراد.

قال لي العمدة إمانيويل كليفر: «عندما تذهبون إلى أروشا أرغب إليك أن تتصل بابن عمٍّ لي هناك». وكنتُ أعلم أنه أحد أقرباء إلدريدج كليفر، أحد مؤسسي حزب النمر الأسود في أوكلاند بكاليفورنيا. لكن العمدةَ أخبرني عن ابن عمٍّ آخر له يدعى بيتْ أونيل.

اتصلتُ بـ بيتْ، فدعاني إلى الإقامة في نُزُل ضيافته مدةَ بحثي عن مواقع لجسرنا الجوي. لم يكن ثمة ما أتوقَّعه عند وصولي، على أن العمدة كليفر كان قد أطلعني على بعض أخبار بيتْ إضافةً إلى ما قرأتُه عنه. ويجدر بالذكر أنني كنتُ مراهقاً في إبان أعمال الشغب العِرقية التي وقعت في عقد الستينيات من القرن الماضي، وتذكَّرتُ كم كان ينخلع قلبي فَرَقاً من أعضاء حزب النمر الأسود، وهو شعور كل شخصٍ أبيض عرفتُه. كان خوفي يتزايد من لقائي الأول مع بيتْ كلما اقتربَ موعد لقائي له.

عندما وصلتُ إلى بيته كان أول خواطري: «إذن هذه هي حياة هاربٍ من العدالة مشهور!»

برزتْ على أحد المباني صورةٌ جداريةٌ لوجوه عددٍ من الشخصيات التي ناضلت في سبيل حرية السود وحقوقهم في أمريكا، وعلى رأسهم مالكوم إكس، الذي كان لسيرته الذاتية The Autobiography of Malcolm X أثر كبير في تعزيز معتقدات بيتْ وإغنائها. وظهرت أيضاً صُوَرٌ لآخرين من أمثال مارتن لوثر كينغ الابن، ونات تيرنر، وجون براون، وسوجرنر تروث، وهاريت تَبْمان. أما المبنى الذي كان يقيم فيه بيتْ وشارلوت فظهرت عليه لوحةٌ لأحد أعضاء حزب النمر الأسود تبدو على وجهه سيماء الضراوة والشدَّة.

وأجدني هنا مضطراً إلى الاعتراف بشعوري بالشك في صواب ربط مؤسسة «من القلب إلى القلب» بمجرمٍ هاربٍ حريصٍ على قلب حكومة الولايات المتحدة. وانتابتني الهواجس، فقلتُ في نفسي: ماذا يهدف أونيل وزوجه؟ هل سيستعملان هذا المشروع لتحقيق مكاسب سياسيةٍ شخصية؟ وهل بإمكاني الثقة بهما؟

على أنني ما إن تحدَّثتُ إلى بيتٍ حتى أنستُ به وركنتُ إليه، ووجدتُ أن حرارة مشاعره لا يجاريها إلا توقُّد آرائه. في تلك الليلة الأولى تحدَّثنا حتى الصباح، كلٌّ عما يحمله ويعتزُّ به من مبادئ وآراء؛ فكلانا مثاليٌّ ونشِط، وكلانا مدركٌ لمشكلات العالم ومظالمه، إلا أن بيتٌ اختار مواجهة المشكلات عن طريق العنف والإطاحة الثورية بنظامٍ سياسيٍّ يشعر هو بجَوْره، في حين اخترتُ أنا العملَ ضمن النظام دون أن أتجاوز حدودَ إمكانات الفرد في تغيير العالَم.

ومع كل الاختلاف في وجهات نظرنا وفي المنحى الذي اختطَّه كلٌّ منّا لنفسه، كان ثمة عاملٌ مشترك بيننا، وهو اعتقادنا بضرورة تحسين هذا العالم. تحدَّثنا في السياسة والعلاقات بين الأعراق والشؤون العالمية، وعن أحلامنا العريضة معتقدين أن بإمكاننا تغيير العالم.

أخبرتُه عن مؤسسة «من القلب إلى القلب»، وعن الخطاب الذي ارتجلتُه في نادي الروتاري، وعن رحلاتنا إلى المناطق المنكوبة من العالم لتوفير المعونة اللازمة لضحايا الأعاصير والفيضانات وأعمال العنف في الولايات المتحدة، وكذلك لأولئك الذين يعانون وطأةَ الكوارث الطبيعية والاقتصادية في شتى أنحاء العالم.

ثم إني أطلعتُه على فلسفتي المتمثلة في أن خدمة الآخرين تتيح فرصة الإحساس بمعنى الحياة وأهميتها، وذكرتُ له النقاط الثلاث التي أكرّرها في كل مناسبة، وهي:

- أن لدى كل فردٍ ما يبذله؛
- أن كلاً منا يستطيع أن يبدأ حيثما كان؛
- وأن معظم الناس راغبون في خدمة الآخرين إذا اقتضى الحال وأتيحت الفرصة.

في المقابل أخبرني بيتْ عن أنشطته هو وزوجته في تانزانيا، وكيف أنهما تخلّيا عن العنف كوسيلةٍ للتغيير، وعَزَما على ترك بصمةٍ حيثما حلاّ. وقد وجدتُ أن ثمة جوانب شبهٍ في الصراعات التي نواجهها في سبيل تحقيق أهدافنا. فكثيرون يضطرون إلى التعامل مع المواقف عندما تصل إلى طريق مسدودة، وحيث تغدو مواردُنا قاصرةً عن الوفاء بحاجات الملهوفين من حولنا.

قال بيتْ: «هناك قانونٌ عام يطبَّق في هذا المقام، وقد تعلَّمتُه من شارلوت التي ربما تكون قد استنبطته من تربيتها الدينية في كانزاس سيتي، ومؤدَّاه: إذا بَذَلْتَ توفَّرتْ لك أسبابُ العناية، وإذا مَنَعْتَ انسلختْ عنك تلك الأسبابُ جميعاً». وقد أدركتُ مغزى فكرته تماماً.

وساق بيتْ أمثلةً عن وضع هذا القانون موضع التنفيذ الفعلي في المركز الاجتماعي الذي يديرانه، فقال إنهما بدأا دروسَ الحاسوب باستعمال جهازٍ واحدٍ كان يتحلَّق حوله أكثر من عشرة أفراد. وفي

غضون أسابيع قليلة زوَّدتهم الشركاتُ المحليّة والحكومات بأعدادٍ من الحواسيب بحيث يتوافر الآن جهازٌ لكل طالب. ويزداد إعجابك إذا علمتَ بُعد موقعهما عن حياة المدينة؛ فمنطقتهما لا تكاد تنعم بالطاقة الكهربائية المنتظمة، وتُحمل إليها المياه حملاً من آبار القرية، ويقتصر مجالُ العمل فيها على زراعة الذرة والموز والزهور.

وقد ترافق النجاحُ الذي تحقَّق في علم الحاسوب بدروسٍ تعليميةٍ أخرى في الموسيقا واللغات والرقص وسائر الفنون. وإذ تنتشر الأخبارُ عن فعاليات المركز الاجتماعي، لا يدَّخر أهل المنطقة وسعاً في الإسهام فيه بشتى الوسائل. يقول بيتْ: «عندما ترى ثمرة جهودك، فذلك يمنحك مزيداً من القوة على المتابعة يوماً بعد يوم».

وكنتُ أدرك مقصده تماماً من هذا القول؛ فمشاعر الناس في مؤسسة «من القلب إلى القلب» تتشابه كثيراً في التعبير عن استجابتهم لإعصارٍ كاسحٍ في نيو أورليانز، أو إعصارٍ مدمِّرٍ في أوكلاهوما، أو زلزالٍ ماحقٍ في باكستان. إننا نبدأ العمل على الفور بثقة مَنْ يملك وسائلَ العمل كلَّها، مع أننا لا نملكها بالفعل، إلا أننا نشعر أن لدينا دوماً ما يكفينا للاستمرار دون أن تكون استجابتُنا مرهونةً بتوفُّر الإمدادات أو الموارد أو المتطوِّعين. ولنضع هذه القاعدة نصب أعيننا: إننا إذا انتظرنا فلن نملك الوسيلةَ الكافية للعمل، أما إذا بادرنا إليه توفَّرت لنا كلُّ وسائله. ويبدو أن ذلك قانون شامل، كما قال بيتْ.

يكتب هارولد كوشنر في كتابه How Good Do We Have to Be? من منظور مشابه، فيرى أن مساعدة الآخرين «ليست كحساب مصرفيٍّ استنفده العطاءُ فلا يُنفَق منه درهمٌ إلا مرةً واحدةً بلا عِوَض، كما أن الحبَّ ليس كمجموعة من الناس اصطفُّوا على مائدةٍ مفتوحة يخشى الواحدُ منهم أن يستأثر مَنْ أمامه بشيءٍ من نصيبه فلا يترك له سوى القليل... إننا كلما «وهبنا» حبَّنا جدَّده الله لنا لنمسي مَعينَ حُبٍّ فيّاضاً على الخلق أجمعين، لا يمكن أن ينضب».[4]

في تلك الليلة الأولى عقدتُ مع بيتْ صداقةً وشركة، فقد ساعَدَنا في تعرُّف أماكن في تانزانيا تحتاج إلى معونةٍ طبيّة، وأدركنا منه قيمةَ الشخص يعيش ليقوم بخدمة الآخرين من موقع وجوده، برغم عدم قدرته على العودة إلى وطنه. وهو يتساءل: «كيف كان سيتسنى لي أن أفعل ما أفعله هنا لو كنتُ في الولايات المتحدة؟ كم كانت ستكون حياتي مختلفةً لو لم نأخذ سيارتنا ونخرج من كانزاس سيتي هاربين عبر نيويورك. إنني أعرف الجواب بالتأكيد: كنتُ سأكون في عداد الأموات!»

يقول كوشنر إن تسخير أنفسنا للآخرين لا يغيِّر ـ على المستوى المنطقي ـ شيئاً من ماضينا، «إلا أنه ـ على المستوى اللامنطقي، حيث تسكن أرواحُنا ـ يفضي بنا إلى الأعماق الخيِّرة النبيلة من ذواتنا»[5]. ومن الواضح أن بيتْ كان يعيش ذاته الخيِّرة هذه في تانزانيا.

وفي ختام زيارتي الأولى هذه قال لي بيتْ: «ها قد قضينا الليل كلَّه ونحن نتحدث عن بواعثنا ومصادر إلهامنا وعوامل استمرار عطائنا. أما أنا فقد بدأ نشاطي في مساق حركةٍ سياسية، وانتهت تلك الحركة بعد أن تبيَّن لي عقم معظم المبادئ التي حملتني على السير في ركابها. لذلك أحب أن أطرح عليك هذه السؤال: ما هو المبدأ الذي سننذر حياتنا له؟»

كان صوته ينضح تصميما وتوقُّداً، وراح يحدِّثني عن التبدُّل الذي طرأ على حياته عندما وقفَ نفسه للمذهب الاشتراكي، إذ كانت الحياةُ الاشتراكية في بدايات تحوُّله تبدو مثاليةً يبذل بمقتضاها الناسُ ما في وسعهم لخير المجتمع، بحيث تلبَّى حاجاتُ الأفراد بما تفرضه فلسفةُ هذا المذهب. ثم أشار إلى حادثةٍ سابقةٍ وقعت له عندما طلبَ منه قادةُ الحزب أن يضع مشكلاته الشخصية مع شرطة كانزاس جانباً لكي يتمكن من الالتفات إلى خدمة مجتمع السود في كانزاس سيتي.

قال بيتْ: «كانت فلسفةً متناقضةً تماماً مع أسلوب حياتي؛ فقد كنتُ من أكثر الناس مادّيةً وإسرافاً على نفسي، لا أعبأ بأيِّ وسيلةٍ أحصل بها على ملابسي أو جواهري أو سياراتي».

ثم إنه مالَ إلى الفكر الماركسي، الذي فتح عينيه على عالَمٍ أكبر منه، فحَفَزَه واستحثَّه، ثم ما لبث أن شهدَ انهياره بوساطة الجشع والنفاق.

وأردف: «وهكذا أدركتُ مدى عُقم هذه المذاهب؛ فماذا تَستبدل بها وقد دَرَجَتْ؟»

تحدَّثنا باستفاضة عن فلسفة كثيرٍ من المذاهب وعقَّبنا عليها، فاستعرضنا الشيوعية والاشتراكية والرأسمالية والفوضوية وسائر النُّظم الاشتراكية التي جرَّبها الإنسان، فلم نجد من بينها نظاماً خليقاً بأن نَهَبَ له حياتنا.

وها أنا مع شخصٍ كان يؤمن بقدرته على تغيير العالَم عن طريق إسقاط القوة السياسية المهيمنة. ولما استَيْقن قصورَه عن تغيير الولايات المتحدة وحدها، بَلْهَ العالَم، عَمَدَ التركيزَ على إمكاناته لإحداث تغييرٍ في المجتمع التانزاني النائي الذي اتَّخذه مُقاماً له. ولعلَّ الجواب عن سؤاله الكبير ـ ما هو المذهب الذي يستحق أن نهبَ له حياتنا؟ ـ يكمن في السبب الذي جعلني أفعل ما فعلتُ في مؤسسة «من القلب إلى القلب». ماذا كانت دوافعي؟ ما الذي جعلني أفكِّر في تغيير العالم؟ وما هو المذهب السياسي الذي قد يمكِّنني من تحقيق ذلك؟

إنه سؤالٌ مشروع يجدر أن يوجِّهه كلٌّ منّا إلى نفسه الفَيْنةَ بعد الفينة: ما الذي يحفزنا على فعل ما نفعل؟ وما الذي يحملنا على الاعتقاد بأننا أَصَبْنا تغييراً أو تركنا أثراً أو بصمة، أو أن باستطاعتنا أن نترك مثل ذلك الأثر أو تلك البصمة؟ علامَ نحيا؟

تعرَّض الفيلسوف هَسْتن سميث إلى قضيته المذاهب السياسية التي بحثنا فيها بيتْ وأنا، فقال إن المذهب الشيوعي والمذهب التقدُّمي - وهما أوسع المذاهب انتشاراً في القرن العشرين - يفتقران إلى مكوِّن أساسي؛ «إذ ليس في أيٍّ منهما ما يسدُّ الفجوةَ الروحيَّة في البنية الإنسانية. ومن ثم انقلب التقدُّم إلى شيءٍ أشبه بالكابوس، ووسَّعت الحملةُ على الجهل نطاقَ معرفتنا بالطبيعة. لكن العلم لا يسعفنا بتحديد المنحى الذي يستحق أن نقف حياتنا له».

أما فيما يتصل بالمذهب الشيوعي، «فقد حمَّل ماركس حركتَه من معوِّقاتٍ قلَّما يشهد لها التاريخُ مثيلاً... فالسجلُّ الماركسي في مجال الرحمة ليس بأفضل منه في مجال الحقيقة»[6].

قلتُ لـ بيتْ إنني خلصتُ إلى أنَّ كلَّ الأيديولوجيات مآلها الإخفاق. صحيحٌ أن بعضها قد يكون أكثر إيذاناً بتحقيق العدالة من بعضها الآخر، إلا أنها محكومٌ عليها جميعاً بالفشل في نهاية المطاف. وقلتُ أيضاً: «لا بدَّ من أن يكون لكلِّ فردٍ هدفٌ في حياته يتخطّى وتيرة أعماله اليومية الرتيبة. وأعتقد أن هدفنا يجب أن يتمثَّل في أن نعطي من أنفسنا قدرَ استطاعتنا، وحسبما تتطلَّبه حاجةُ مَنْ يلينا. وذلك - فيما أرى - هو سبيلنا الوحيد للإحساس بمعنى حياتنا على هذه الأرض. إن الأمر لا يتعلق أبداً بجمع ثروةٍ أو تحصيل سُلطة، بل بخدمة الناس. وهذا بالضبط غاية وجودنا، وهذا هو مذهبي».

فكَّرَ بيتْ فيما قلتُه مليّاً ثم أومأ برأسه موافقاً. ويبدو أننا كنّا متَّفقَيْن إلى حدٍّ بعيد. إلا أنني كنتُ أخالفه في أنني لم أسعَ إلى قلب نظام الدولة، بل انخرطتُ في نمطٍ آخر من «القلب».

إن الثقافة التي سادت من حولي في أيام فتوَّتي كانت محكومةً بالمصلحة الشخصية والسَّرَف. وفي الوقت الذي كانت تتنامى فيه ثقافتنا الغنيَّة، كنت أرى أناساً يعانون، في الولايات المتحدة وفي غيرها كذلك، فرغبتُ عن جمع مزيدٍ من المال أو السعي إلى تحقيق مزيدٍ من الرغائب، ووجدتُ أن ثمة أسلوباً للحياة أفضل وأكثر إقناعاً يتمثل في العيش لخدمة الآخرين، فذلك هو التحرُّر والانعتاق الذي سأنعته بالثوري. وأعتقد أن بالإمكان، بل من المستحسن، أن تحيا قائماً على خدمة الآخرين.

على هذا المنوال تحدَّثتُ تلك الليلة مع بيتْ لغةَ القلب، وسَبَرَ كلٌّ منّا مبادئ الآخر، وتكشَّف لي عن التزامٍ كاملٍ بجادّة الصواب في كلِّ ما يأتي ويذر.

واستقرَّ في نفسي أنني حظيتُ بصديقٍ مخلص عندما التقينا في المطار بعد عدة أيامٍ للوداع. ولمّا ترجَّلنا من السيارة ودخلنا قاعةَ السفر، طلبَ مني التريُّثَ قليلاً لأنه يقصدني في أمر. تجاذبتني الظنون عمّا يريده مني. لعلَّه بحاجةٍ إلى مال. وبعد صمتٍ طويل وضعَ بيتْ يديه على كتفيَّ وقال: «هل لك أن تسدي إليَّ صنيعاً؟»

مثل هذا السؤال مألوفٌ عندي؛ فكثيراً ما يقصدني الناسُ في استشاراتٍ طبيّةٍ مجانية، أو للحصول على عيِّناتٍ من الأدوية. ومثل هذه خدماتٌ ممكنةٌ وميسورة، إلا أنهم يطلبون أحياناً تجهيزاتٍ لمستشفياتهم وعياداتهم، وتحقيق ذلك قد ينطوي على صعوبةٍ أكبر. قَفَزَ إلى ذهني أنه ربما سيطلب مني بعض اللقاحات لتلامذة المدارس المحلية، أو موادَّ طبيةً للمستوصف المحلي. لعلَّه سيطلب مني بناء مستشفىً في المجمَّع الذي يقطن فيه.

قلتُ له مؤكِّداً: «سأفعل ما في وسعي فعله».

قال: «والدي يُحتَضَر من مرض السرطان في كانزاس سيتي. ويتعذّر عليَّ زيارتُه كما تعلم بسبب ظرفي القانوني. فلولا تزوره نيابةً عني وتطمئنه عن أحوالي. لا تأخذ له شيئاً، ما عليك إلا أن تتوجَّه إليه وتفعل ما فعلتَه معي وتتحدث إليه وتؤانسه. وثمة نكتةٌ عائليةٌ أريدك أن تذكرها له، وهي أنني منذ سنوات قلتُ له إنني سأنال بطولة القفازات الذهبية للملاكمة. هل لك أن تحيي هذه الدعابة؟»

هل هذا كلُّ شيء؟ أن أزور أباه المريض؟ وأن أتحدث عن الملاكمة؟ هل هذا كلُّ ما يريد مني فعله؟ اغرورقت عيناي؛ فربما لن يرى بيتٌ والده أبداً. إلا أن في استطاعتي أن أعود الأبَ وأن أسهم في خدمة الابن الذي عرفتُه فأحببتُه.

قلتُ: «سأفعل بالتأكيد، وهذا من دواعي سروري».

مددتُ يدي للمصافحة.

فأقبل إليَّ بيتٌ متلهفاً: «لا، إننا صديقان، بل أَخَوان». ومع هذه الكلمات الصغيرة غمرني معانقاً.

غادرتُ تانزانيا وأنا أقلِّب الفكرَ فيما يربط سؤالَيْ بيتٌ أحدهما بالآخر.

هذا رجلٌ وَقَفَ حياته مناضلاً لتغيير العالم، وانتهى به الأمر إلى أعماق إفريقية. وكنّا بالأمس قد تحدَّثنا طوال الليلة عن أعلى نتاجٍ للذكاء الإنساني: النُّظُم الكبيرة، وأفكار الصورة الكبيرة. إلا أننا في واقع الأمر لا نعيش كلَّ يومٍ من أيامنا في إطار النُّظُم الكبيرة، بل ضمن نُظُمٍ صغيرة، إطاراً إطاراً ولحظةً بلحظة.

كيف يمكننا تجاوُز الأمرين؟ كيف نجد معنىً لحياتنا، ملتزمين بشيءٍ هو أكبر منّا، في حياةٍ مبنيَّةٍ على الأُطُر المنفردة؟ الجواب: بفعل أشياء صغيرة، من قبيل زيارة والدٍ يُحتَضَر لثائرٍ مغيَّبٍ عن وطنه؛ بالقيام بعملٍ لإنسانٍ يتعذَّر عليه القيام به لنفسه. ونقطة انطلاقنا من مكان وجودنا.

قد ينتابنا شيءٌ من حبوط المسعى عندما تجبهنا مشكلاتُ العالَم وحاجاتُه، فنرى كم تقصر جهودنا عن حلِّها أو الوفاء بها. غير أننا ـ من الناحية الأخرى ـ قادرون جميعاً وبالتأكيد على فعل شيءٍ ما، مهما بدا صغيراً. خذ مثالاً مؤسسةَ «من القلب إلى القلب» التي بدأت بمشروعٍ متواضع؛ وتحوَّلَ بيتٌ أونيل الذي بدأ بأمرٍ صغيرٍ كذلك.

صحيحٌ أنني لا أستطيع أن أحلَّ مشكلة البطالة في تانزانيا، أو أن أعقل وباء الإيدز، وأن أتولى أمر مشكلات العالَم الكبرى التي يواجهها الإنسانُ هنا وهناك. صحيحٌ أنني لم أستطع مساعدةَ بيتٍ في تغيير وجه عالَمه، إلا أن باستطاعتي أن أزور أباه. إن الخدمة الصادقة تبدأ بالتفكير في الأمور الصغيرة أولاً.

زرتُ والد بيتٍ لدى عودتي إلى الولايات المتحدة، وأخبرتُه أن ولده يؤدي أعمالاً عظيمةً لخدمة البشر، وأنه بات بطل تانزانيا في الملاكمة للوزن الثقيل، وأن ابنه يحبّه حبّاً جمّاً. وكان الأب سعيداً لسماع أخبار ابنه، إلا أنه لم يكن في وضعٍ صحّيٍّ يسمح لي بزيارته مرةً أخرى. وتوفي بعد ذلك بزمنٍ قصير.

أحياناً لا يقيم الناسُ وزناً لتقديم خدمةٍ إلى شخصٍ آخر، بداعي أن مشكلات العالَم كبيرةٌ وطاغية، فماذا عسى أن يغيِّر فيها صنيعٌ واحد؟

كلّ شيء.